منهج الجعبري وأسلوبه في كنز المعاني

مجلة دار الحديث الحسنية

د. أحمد اليزيدي.

منهج الجعبري وأسلوبه في "كنز المعاني"

للدكتور
أحمد اليزيدي

منهج الجعبري في كنز المعاني* (خطة وخطوات)

قبل كل شيء أبادر بطرح هذا التساؤل وهو : هل للجعبري منهج مستقل ؟ أم أنه فقط كان حريصا على بيان منهج الشاطبي [1] ؟

إن من يتأمل منهج الشاطبي في دقته وتشعبه ربما يستبعد أن يكون للجعبري منهج مستقل، لا سيما إذا لاحظ اندماج الجعبري مع دقائق إشارات الشاطبي ومبالغته في التنبيه على ما قد لا يخطر بالبال.

لكن مهما كان التلاحم بين الجعبري والشاطبي فإنه لا يمكنه أن يخفي معالم منهج كل واحد منهما، معالم تميز أحدهما عن الآخر ضرورة.

أما بالنسبة للجعبري فإنه قد رسم الخطوط الأساسية لمنهجه في محورين، نحاول اختصار الحديث عنهما ثم نتابع مع الجعبري ذيول منهجه.

المحـــور الأول ؛ مزيج مما انفرد به الجعبري وما أبان به عن منهج الشاطبي، ويقوم هذا المحور على أساسين :

الأساس الأول : ويعتبر بيانا لمنهج الشاطبي وهو قسمان :

(*) الجعبري هو إسحاق بن ابراهيم بن عمر (640 – 732هـ)، إمام شافعي المذهب درس القراءات العشر والحديث والفقه على علماء أجلاء، كما أخذ عنه علماء كبار كالحافظ ابن كثير والرحالة المغربي ابن بطوطة وابن الطحان شيخ ابن الجزري .
و"كنز المعاني في شرح حرز الأماني ووجه التهاني " يعد أحد أهم شروح «حرز الأماني ..» أو "الشاطبية".

(1) هو القاسم بن فيرة الشاطبي الأندلسي (ت 590 هـ) صاحب "الشاطبية" المشار إليها أعلاه.

مـــــلاحظة : الصفحات المحال عليها في هذا الموضوع هي في أطروحة الباحث أو في النموذج المحقق من المخطوط أو في المخطوط الأصلي حسب السياق.

القسم الأول : يذكر فيه الجعبري أدوات ووسائل المنهج، ومنها:

أولا : الأسلوب : إنه أسلوب كأسلوب الشاطبي الذي وصفه الجعبري بأنه غير ممل ولا مخل، بل هو أسلوب مخترع مبتدع عجيب[2] كما يأتي :

ثانيا : المصادر، التي يعتبر كلام الناظم أولها، ثم أصله التيسير ثم " أقوال الشارحين ومذاهب الناقلين [3]، ويعترف الجعبري في هذا القسم بأن "فتح الوصيد في شرح القصيد "للسخاوي يعتبر مرجعا لكل من جاءوا بعده وهو واحد منهم[4].

القسم الثاني : يذكر في هذا القسم طريقته في بيان منهج الشاطبي وتتمثل في كيفية الشرح وتعامله مع المصادر وبيان ما طابق كلام الناظم من أقوال الشارحين، وكيفية التعليل والاختيار والتوجيه، وتوضيح ما يرد من الإشكالات والإجابة على ما يطرح من الأسئلة وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح.

الأساس الثاني : ويعتبر مما استأثر به الجعبري من المباحث والتنبيهات والذيول والإشارات والإفادات والنقول الخارجة عن إطار طرق القصيد، وقد اختصرها الجعبري بقوله :

«ثم استأثرت بمباحث وترتيب ومآخذ وتهذيب، وتفريع معجز في أسلوب موجز ونقول جمة تثير الهمة، إذا وقفت عليها علمت أني لم أسبق اليها [5]".

المحور الثاني : أفرغ الجعبري في هذا المحور كل ما فصله في المحور الأول على ثلاث خطوات مرتبة سنفصلها فيما بعد:

(2) كنز المعاني، ص : 2 - 3.

(3) نفس المصدر، ص : 3.

(4) نفس المصدر، ص : 4.

(5) كنز المعاني، ص : 4، الجعبري إذن يصف أسلوبه بمثل ما وصف به أسلوب الشاطبي، فأسلوب الشاطبي غير ممل ولا مخل بل هو مخترع مبتدع عجيب وأسلوب الجعبري موجز معجز يثير همة القارئ بكثرة نقوله المفيدة.

الأولى في الإعراب واللغة والبيان.

والثانية في شرح معاني كلام الناظم.

والثالثة في توجيه القراءات.

هذا هو المنهج الذي رسمه الجعبري لشرح حرز الأماني. وأجاز الاقتصار على خطوة لمن أراد ذلك بشرط أن تكون خاتمة كل خطوة مناسبة لها.

وقد طبق الجعبري الخطوات الثلاث وأضاف إليها كثيرا مما سبقت الإشارة إليه في المحور الأول. والتزم بنظام البيت الواحد ولو كانت الوحدة في أكثر من بيت.

تفصيل عن الخطوات الثلاث :

الخطوة الأولى : الإعراب واللغة والبيان :

هذه الخطوة التزم بها الجعبري التزاما تاما ما لم يفرط في شيء منها بل لم يتساهل فيه، فكلما ذكر بيتا للناظم بادر إلى إعرابه، وكثيرا ما يذكر وجهين أو أكثر بينما يقتصر غيره (6) في الغالب على وجه واحد، وهو يمزج في الغالب بين الإعراب والتفسير اللغوي وقد يجره ذلك إلى ذكر أغراض بلاغية أو محسنات بديعية وهذا وذاك يجرانه إلى سوق الشواهد نظما ونثرا.

وقد يبدأ الإعراب بالتفسير اللغوي كقوله في إعراب البيت 145 : "**ولم تُدْغم مفتوحة بعد ساكن** " : "تُدْغم : لغة في تُدّغم، ومرفوعة ضمير الدال" (7).

وأحيانا يفاجيء القاريء بذكر مقدر ربما في وسط البيت كما في إعرابه للبيت 184 "**وقل ألفا عن أهل مصر تبدلت ...الخ**" قال بعد البيت مباشرة : «ضمير ذات الفتح فاعل تبدلت (8) ...الخ». وربما بدأ

(6) الموصلي "شعلة" مثلا في كنز المعاني قلما يذكر أكثر من وجه، بل المتخصص في الإعراب كذلك مثل الشيخ حسن السيناوني في الكواكب الدرية في إعراب الشاطبية.

(7) كنز المعاني، ص : 268.

(8) كنز المعاني، ص : 380.

بالمقدر كأنه لفظ من ألفاظ البيت فلا يحس القارئ بأنه ذكر مقدرا إلا بعد أن يفتقده في البيت. كما فعل في إعراب البيت 403 **"وأمي وأجري سكنا (د)ين (صحبة)"** قال : «وياء أمي وأجري سكنا اسمية[9]».

وطريقة الجعبري في هذا النوع من الذكر طريقة تربوية، إذ ظل يذكره مبينا طويلا ثم فسره بعد ذلك بلفظ : أي كثيرا ثم هجم عليه مباشرة كما رأيت، وله في هذا النوع أفانين يطول الكلام بتتبعها رغم أنها مشوقة. ينظر مثلا صنيعه في إعراب البيت 548 : **"ورضوان اضمم غير ثاني العقود كسره صح ... الخ "**.

قال في إعرابه : «وكل رضوان اضمم كبرى، وكسر رضوان مفعوله[10]» فكلمة "كل" مضاف مقدر وكلمة "رضوان" بعد كسر مضاف إليه أصله ضمير والجعبري ذكر الأول مباشرة وأظهر الثاني دون إشارة الى مقدر ولا إلى إظهار ضمير وإظهاره لمثل هذا الضمير دون سابق إعلان يكثر كلما تقدم الجعبري في شرحه، قال في اعرابه للبيت : 586 : **"ويآتها وجهي وإني كلاهما ...الخ"** : «ويآت آل عمران مبتدأ» فعبارة «آل عمران» في مكان «ها» من «ويآتها».

وبعد فراغه من أوجه الإعراب والتفسيرات اللغوية وإرجاع كل كلمة إلى أصلها : (الاشتقاق) ينصرف في كثير من الأحيان إلى ذكر المحسنات البديعية وهو لا يكتفي بذكر المصطلح بل يشرحه ويحلل قاعدته، ومن أمثلة ذلك صنيعه في إعراب البيت الخامس :

وبعد فحبل الله فينا كتابه ❁ فجاهد به حبل العدا متحبلا

قال عنه بعد فراغه من اللغة والاعراب : «وفيه صناعة التجانس : "الاشتراك في أكثر المواد سواء رجع إلى أصل واحد كأقم مع القيم، أو أكثر كروح وريحان "وحبل وحبل ومتحبل " ثم قال – مشيرا لما في البيت من الاستعارة – : «والعرب تستعير الحبل للعهد والوصلة. وقطعه للقطع» قال «إني بحبك واصل حبلي" [11].

---

(9) نفس المصدر، ورقة : 111 ظ.

(10) كنز المعاني، ص : 1196.

(11) كنز المعاني، ص : 27.

قاعدة :

من خلال تتبعي لهذا الجانب في الخطوة الأولى تبين لي أن الجعبري كلما مضى في كنزه هذا خف عنده هذا الاهتمام بالجانب البلاغي وكثر تعويضه لتفسير المقدرات في الإعراب بذكرها مباشرة دون تفسير كما سبق التمثيل لذلك.

الخطوة الثانية : شرح معاني الكلام :

بعد نهاية الجعبري من شرح مقدمة القصيدة ومصطلحاتها وقواعدها التزم افتتاح هذه الخطوة بلفظ : أي التفسيرية، ويتبعها غالبا بلفظ قرأ فلان كذا، فيذكر أولا مدلولات الرموز مرتبة كما ذكرها الشاطبي ويقف عند نهاية كل حرف، ثم يستأنف نفس العملية ويختم بالمسكوت عنهم معبرا عنهم بالباقين، فيفتتح مثلا بمثل قوله : «أي قرأ ذو راء راويه ونون ناصر : الكسائي وعاصم، مالك هنا على وزن فاعل " [12].

وكثيرا ما يستعمل الجعبري بدل لفظ : قرأ، ما اصطلح الشاطبي على تسميته بالضد فيقول مثلا : فتح فلان، أو ضم أو كسر، أو مد أو أظهر أو أثبت كذا إلى غير ذلك، قاصدا بذلك الاختصار.

ثم يتبع ذلك بإخراج ما أخرجته القيود ويمثل لكل حكم في كل حالة ويبين من ألفاظ الناظم ما ساقه لمجرد زيارة إيضاح ويذكر ما قد يغني عنه من الألفاظ، وينبه على المفاهيم ومأخذ قراءة ما - بمقتضى المفهوم المذكور - من قول شارح أو مؤلف سابق عليه، ولا ينسى أن يرد الإيرادات الواردة أو التي يفترضها، أو يقرها وقليلا ما يفعل ذلك.

وقلما ينتهي الجعبري من شرح بيت دون أن يذيله : إما بتنبيهات أو بإرشارات أو بتذييل، أو يجمع بينها، يشير في ذلك إما الى زيادة زادها الشاطبي على أصله : " التيسير" وإما إلى رواية

(12) كنز المعاني، ص : 193، شرح البيت 108 "ومالك يوم الدين راويه ناصر ..."

خارج السبعة أو لتقرير قاعدة [13] في المنهج قصرت عن بيانها عبارة الشاطبي في نظره، وهي قواعد بالغة الأهمية، من لم يتتبعها لم يتمكن من إدراك غوامض منهج الشاطبي ولا استيعاب ذيول منهج الجعبري.

إصلاحات الجعبري :

كثيرا ما اقترح الجعبري أثناء هذه الخطوة – وأحيانا أثناء الخطوة الثالثة – إصلاح عبارة في بيت الشاطبي، أو شطره، أو البيت كله، وربما اقترح إصلاح مجموعة أبيات [14].

ويتم الإصلاح باستبدال كلمة أخرى أو شطر بكامله بآخر، وفي حالة إصلاح البيت أو الأبيات يبقى على بعض كلمات الناظم، وقد يصلح بيتين فيستغنى عنهما ببيت واحد [15]. والبيتان كل واحد منهما في باب مستقل، وهذا من غريب إصلاحاته. وقد يقترح إصلاحا بتقديم بيت أو تأخيره، وأحيانا يعود لإصلاح بيت بعد أن يشرح بيتا أو بيتين بعده [16]، وقد يقترح إصلاح عنوان للاستغناء عن بيت [17] مثلا .. إلى أشكال كثيرة من الإصلاح.

أهداف الإصلاح :

فكما تنوعت أشكال الإصلاح عند الجعبري تنوعت أهدافه. فهو إما أن يصلح فقط من أجل الاختصار وهو كثير. وإما لأن يعم قراءة أو وجها، وإما لإزالة احتمال [18] كأن يخرج ما يتوهم دخوله

(13) ينظر مثلا ص : 195 (تقريرات الكلمة ذات النظير ... الخ وقوله في ص : 223 "واعلم أن المدغم في الكبير مرسوم مطلقا ... الخ".

(14) ينظر مثلا ص : 561 إصلاح الأبيات من 255 الى 258، أربعة أبيات أصلحها بثلاثة أوضح منها وقد استعمل الشاطبي عبارة "فاحتل بذهنك أحيلا " دليلا على قصور العبارة عن البيان كما سبق.

(15) مثلا البيتان : 154 و334 الأول في باب الإدغام الكبير، والثاني في باب الفتح والإمالة، ص : 294.

(16) كنز المعاني، ص : 277.

(17) مثل قول الشاطبي "باب الإدغام الكبير" اقترح الجعبري زيادة عبارة : "لأبي عمرو" ليستغني عن البيت "ودونك الإدغام الكبير وقطبه أبا عمرو".

(18) ينظر، ص : 413.

ليخص قارئا مثلا لوجه ما، وإما لأن يكون الكلام أولى وأحسن في التعبير عن قراءة ما أو وجه ما[19]، وإما لإيضاح مقصود أو إزالة غموض .. الى أهداف أخرى.

قيمة إصلاحات الجعبري :

تتجلى القيمة العلمية لاصلاحات الجعبري لكلام الشاطبي في كونها تنبئ عن ذاكرة حادة عنده واستيعاب شامل لمذاهب القراء في كل حرف اختلفوا في قراءته، وخاصة حفاظ المغرب كمكي بن أبي طالب القيسي والداني أبو عمرو الداني وغيرهما.

والإصلاح في حد ذاته نقد، وما كان الجعبري ليقدم على نقد الشاطبي وهو من هو عنده ! إلا بعد الحضور المكثف لأقوال وآراء الحفاظ الكبار في ذاكرته.

ومن الفوائد العلمية لهذ الإصلاحات أنها توقف القارئ المبتدئ لتنبهه إلى قضايا ما كان لينتبه إليها لولاها، وتذكر القارئ الممارس بها، ومن القضايا التي أصبحت شبه مسلمة بين علماء القراءات هي أن قصيدة الشاطبي طراز فريد في بابه وأنه لو صح أن تثبت المعجزة لغير الأنبياء لكان الشاطبي معجزة بقصيدته هذه. ورغم ذلك فلم يتهيبها الحذاق من علماء هذا الفن فتناولوا منها بالنقد قضايا متعددة، ومنهم الجعبري وقبله أبو شامة[20] وغيره.

موازنة :

وما دمنا قد ذكرنا أبا شامة مع الجعبري فلا بأس أن نقيم بين إصلاحاتهما موازنة سريعة ولو بمثال أو أمثلة لتتضح لنا قيمة إصلاحات الجعبري العلمية بصورة أشمل.

وبتتبعي لاصلاحات الجعبري وجدت أن أبا شامة قد سبقه إلى

(19) ينظر مثلا، ص : 343.

(20) هو عبد الرحمان بن اسماعيل بن إبراهيم أبو القاسم المقدسي الدمشقي الشافعي المعروف بأبي شامة حجة حافظ. قرأ القراءات على السخاوي وأخذ عنه القرآن الشيخ شهاب الدين حسين بن سليمان الكفدي، توفي سنة 665 هـ. ترجمته في غاية النهاية : 365/1 ومعرفة القراء الكبار : 673/2.

منها وأن الجعبري قد انفرد منها بالكثير، ولم يذكر الجعبري إصلاحات أبي شامة إلا إذا كان له تعقيب على إصلاحه.

مثال 1 :

قال الشاطبي :

وفي طال خلف مع فصالا وعند ما ❁ يسكن وقفا والمفخم فضلا [21].

قال أبو شامة :

وفي طال خلف مع فصالا (ونحوه ❁ وساكن وقف) والمفخم فضلا

قال الجعبري :

(وإن فصل الهاوى فخلف) وعند ما ❁ يسكن وقفا والمفخم فضلا

قال أبو شامة مبررا إصلاحه : «وظاهر النظم يوهم اقتصار الخلاف على "طال" و"فصالا" [22].

وقال الجعبري كذلك : «وقوله : وفي طال خلف مع فصالا» يوهم حصر المختلف فيهما وهو عام لكن الكاف منوية أي في "كطال خلف" ثم حذف اعتمادا على السابقة" [23].

وهكذا ترى أن كلا منهما نبه على نقطة الضعف في النظم وعالجها بما يناسب في نظره، ويلاحظ أن تعبير الجعبري بالهاوي أدق من تعبير أبي شامة بنحو.

مثال 2 :

قال الشاطبي :

ومالك يوم الدين راويه ناصر [24] ❁ ....

وقال أبو شامة مصلحا :

ومالك ممدودا نصير رواته [25] ❁ ....

---

(21) البيت : 361.

(22) ابراز المعاني من حرز الأماني، ص : 263.

(23) كنز المعاني، ص : 771.

(24) البيت : 108.

(25) إبراز المعاني، ص : 70-71.

وقال الجعبري مصلحا أيضا :

ومالك يوم المد راويه ناصر [26] ❁ .... الخ

أصلح أبو شامة لإفادة القيد تصريحا فقط قال : وكان التقييد ممكنا لو قال ... الخ.

ويلاحظ أن الجعبري حاول فقط تعديل إصلاح أبي شامة. وقريب من هذا الصنيع فعلاه مع الشطر الثاني، فأبو شامة يقترح :

.... ❁ سراط بسين قبل كيف أقبلا

والجعبري يقترح :

.... ❁ وسين صراط والصراط لقبلا

مثال 3 :

قال الشاطبي :

وكـــل ثلاثـي يزيـد فإنـــه ❁ ممال كزكاها وأنجى مع ابتلى [27]

قال أبو شامة مصلحا :

وكـل ثلاثـي مزيـد أملـه مثــ ❁ ـل يرضى وتدعى ثم أدنى مع ابتلى [28]

قال الجعبري مصلحا أيضا :

وإن زاد واوي الثلاثي أضجعــن ❁ كأدنى مع استعلى وأربى مع اعتلى [29]

وسبب الإصلاح عندهما معا أن لفظ الشاطبي لا يشمل الإسم كأدنى. ويلاحظ أن الجعبري رفض في إصلاحه التمثيل بما مثل به أبو شامة معترضا على التيسير مثل تدعى عندهما معا وتتلى في التيسير [30].

(26) كنز المعاني، ص : 193 - 195.
(27) البيت : 297.
(28) ابراز المعاني، ص : 211.
(29) كنز المعاني، ص : 645.
(30) كنز المعاني، ص : 47.

مثال 4 :

قال الشاطبي :

وتفخيمه ذكـرا وسترا وبابه ❁ لدى جلة الأصحاب أعمر أرحلا (31)

وقال أبو شامة مصلحا :

وسرا رقيق قل خبيرا وشاكرا ❁ للأكثر ذكرا فخم الجلة العــلا (32)

وقال الجعبري مصلحا أيضا :

كذكـرا رقيـق للأقـل وشاكرا ❁ خبـير لأعيــان وسرا تعــدلا (33)

وسبب الإصلاح هو أن كلام الشاطبي لم يستوعب الخلاف كما عند أبي شامة وتبعه الجعبري دون إشارة الى ذلك، وتعقب ابن الجزري كلام الجعبري وذكر إصلاحه للبيت ثم قال : «وهذا كلام من لم يطلع على مذهب القوم في اختلافهم في ترقيق الراءات وتخصيصهم الراء المفتوحة بالترقيق دون المضمومة ... الخ» (34) هـ.

مثال 5 :

قال الشاطبي :

ولم ير فصلا ساكنا بعد كسرة (35) ❁ ....

وقال الجعبري : «فلو قال مثل :

وفصل سكون غير ما صطق اغتفر (36) ❁ ....

والذي دعا الجعبري إلى إصلاح البيت إرادة المزيد من البيان، ولكن البيان في هذا الإصلاح غير معتبر لما يلي :

---

(31) البيت : 346.

(32) إبراز المعاني، ص : 251.

(33) كنز المعاني، ص : 740.

(34) النشر في القراءات العشر : 2/95 - 96.

(35) البيت : 344.

(36) كنز المعاني، ص : 734.

1) لأن لفظ "صطق" لا معنى له لغة في علمي.

2) لأن هذا الشطر لا ينسجم مع بقية البيت فكان على الجعبري أن يكمل إصلاحه، وأقترح إتمام البيت بما يلي :

"................................... ● لما في الثلاث من قوى الصيت كملا[37]

على أنه لو أكمل إصلاح البيت لفاتته الإشارة إلى إكمال ورش لأصله. هذه النماذج التي ترى فيها كلام الجعبري معترضا لا تمثل إلا النزر اليسير من إصلاحاته الدقيقة التي أبان فيها عن دقة الملاحظة وسعة الاطلاع وسداد الفهم. ولو حاولنا تتبعها لاحتجنا إلى عشرات الصفحات فلنترك المجال للقارئ.

وأخيرا أقول إن إصلاحات الجعبري وما قيل عنها يمثل المستوى الرفيع الذي بلغه الأئمة في هذا العلم قبل الجعبري وفي عصره وبعده.

الخطوة الثالثة : التوجيه :

في هذه الخطوة التزم الجعبري بتوجيه كل قراءة اختلفت عن أخرى في حرف من حروف القرآن، ولم يلتزم نظام البيت الواحد كما فعل في الشرح، بل ربما جمع توجيه أكثر من قراءة مذكورة في أكثر من بيت، وهكذا تراه وجه أحكام الاستعاذة في آخر الباب وكذلك أحكام البسملة ووجه بعض حروف الفاتحة في محلها قبل نهاية السورة، وهكذا لم يلتزم في هذا الموضوع بيتا ولا حرفا.

والجعبري في هذه المرحلة – قبل أن يختار – محايد، تراه يتتبع توجيه كل قراءة مستدلا – بما يراه دليلا من اللغة والشعر – لصاحب القراءة، وكذا بموافقة الرسم حتى يستوفي كل القرآت الثابتة في الحرف في إطار السبعة، ويتوج ذلك عادة بالإعلان عن اختياره.

---

(37) هذا من كلامي غير منقول.

اختيارات الجعبري :

تعتبر اختيارات الجعبري أهم موضوع في هذه الخطوة لأن الجعبري فيها كأنه يراجع توجيهاته السابقة، وهو يختار منها لا من غيرها ولكنه يبرز شخصيته في الموضوع، هو ناقل ولكنه غير مقلد، وهكذا بنى توجيهاته واختياراته على أساسين متشابهين : فأساس توجيهاته قائم على بيان متين الدليل، وأساس اختياراته قائم على ذكر جهة الترجيح وهو الأفصح من الفصيح [38].

من دواعي الاختيار :

لقد تنوعت دواعي الاختيار عند الجعبري تنوعا لا يكاد يضبط وكم حاولت ضبطها وترتيبها حسب أهميتها، ولكنها لتشابهها وتشابكها وكثرتها لا تنضبط بسهولة.

وتقليصا لعدد العناوين جمعت أكثر من سبب تحت عنوان واحد بشرط أن يكون بينها تقارب. فلنذكرها إذن على هذا الترتيب.

1) ابتدأ الجعبري اختياراته باعتماده على القواعد الأصولية فاختار مثلا البسملة بين السور لرجحان الخبر على الأثر [39]، واختار ترك البسملة عند الابتداء بجزء من الأجزاء لرجحان دلالة الخاص على العام [40].

2) وقد اعتمد الجعبري أيضا في اختياراته أن يكون المختار جاريا على القواعد، ويدخل تحت هذالاعتبار أنوا ع، منها : أن يكون

---

(38) عبر الجعبري عن ذلك كله – وهو يصف أسلوبه في معالجة الشاطبية – بقوله : « ... ورشحته بمحاسن التعليل مبينا متين الدليل، ومضيت على اختياري من القراءات غير مقلد أحدا من أرباب الاختيارات ذاكرا جهة الترجيح، وهو الأفصح من الفصيح، ووجهت ما يرد عليه من أشكال وأجبت عما ظفرت به من سؤال، ولعمري إن جل ما أثبته إنما هو من مجموع نقولهم وتفريع على أصولهم».
كنز المعاني، ص : 3 - 4.

(39) ينظر كنز المعاني، ص 191، ويقصد بالخبر الحديث الذي رواه أنس وابن جبير، ص : 187، وبالأثر ما روى عن ابن مسعود، ص : 189.

(40) ص : 191، هامش : 3 و4.

المختار هو الأصل، وأن يكون غير عارض لأن إلغاء العارض أكثر من اعتباره، وأن يكون جاريا على القوانين الصرفية [41].

3) اختار الجعبري لكون المختار نصا في المعنى [42]، ويتضمن المصطلح الأصولي أي أن لا يكون ظاهرا ولا مؤولا ولا مجملا وأن يكون نصا في المحكم [43]، أي أن لا يكون متشابها وهما راجعان إلى قاعدة واحدة هي قاعدة أصولية أيضا.

4) يقدم في اختياره ما قرأ به على ما رواه [44].

5) يختار الجعبري لكون المختار موافق لمعنى ما.

وتشمل الموافقة للرسم [45] وهي قاعدة عنده، والموافقة لشيخ أو جملة من الشيوخ وهو كثير بشرط أن يكونوا من كبار الشيوخ [46]، وتشمل أيضا الموافقة للمعنى السابق في الترتيب [47]، والموافقة للقواعد العامة، كحمل الفرع على الأصل أو العكس [48]، وغير ذلك.

6) لكون المختار أبلغ في دلالة ما.

ويشمل ذلك ما إذا كان أبلغ في الدلالة على الخبر [49]، أو على الوحدانية [50] أو على الوعيد والتوبيخ [51]، وغير ذلك.

---

(41) تنظر أمثلة ذلك كله في الصفحات التالية من الكنز، ص : 70 و357 و433 و536.

(42) تنظر الصفحات التالية : 1200، 1221، 1247.

(43) ص : 1103 مثل اختيار "يطهرن" (2 آ 222) بالتشديد.

(44) مثال ذلك اختياره إدغام "ماليه هلك" آ 28 و29 من سورة الحاقة : 69، ص : 595 من الكنز، وكذا اختياره، لفظ النحل في التعوذ، ص : 172.

(45) هذه كثيرة في اختياراته، ويقدم فيها - غالبا- الموافقة تحقيقا على الموافقة تقديرا، ينظر مثلا، ص : 172 و847.

(46) غالبا ما يقرن هذا السبب بسبب آخر تنظر، ص : 214، 1193.

(47) هذا الملحظ عند الجعبري دقيق جدا لم أقف على مثله لغيره وذلك مثل اختياره قراءة : "ننشزها" (2 آ 259) بالزاي لانها تفيد تركيب الأعضاء وهو سابق على نفخ الروح الذي تفيده قراءة ننشرها بالراء، ص : 1133.

(48) مثل اختياره "يتسنه " (2 آ 259) بإثبات الهاء، ص : 1135.

(49) مثل اختياره " أن يوتى أحد" (3 آ 73) بهمزة واحدة، ص : 392.

(50) كاختياره "ونكفر عنكم " (2 آ 271) بالنون، ص : 1159.

(51) مثال الوعيد اختياره "سنكتب ما قالوا " (3 آ 181) بالنون، ص : 1271، ومثال التوبيخ اختياره "أأذهبتم طيبتكم" (46 آ 20) بهمزتين، ص : 389.

7) لقلة التأويل أو التغيير : هذا الاعتبار كثير التنوع يأتي في مقدمة أنواعه اختيار الحقيقة[52].

8) لكونه أكثر استعمالا [53] ويتضمن الأفشى ويتضمن كما يأتي.

9) لكونه أفصح أو أقيس أو أفشى.

كثيرا ما يعبر الجعبري – لتبرير اختياره – بقوله «لأنها الفصحى» وأحيانا يضيف لها : القياسية، وأحيانا يستعمل «لأنها اللغة القياسية [54] الشائعة» ولما كانت القراءة لا توخذ بالأقيس في اللغة ولا بالأفشى في الاستعمال كانت هذه التبريرات مقرونة في الغالب بغيرها عند الجعبري مع العلم بأن تواتر النقل شرط في كل اختيار.

10) لكونه أخف [55]

غالبا ما يعبر الجعبري بنفس العبارة وأحيانا بما يفيد ذلك كأن يقول لعدم الثقل، ويضيف لها أحيانا أنها القياس، وأحيانا يقول : لكونه أخف اللغتين، أو أخف الفصيحتين، الى غير ذلك.

11) لكونه مناسبا لما قبله أو ما بعده أو لهما معا [56] والمناسب قد يكون واحدا وقد يكون أكثر، فإذا كان واحدا – قبل أو بعد – عبر بلفظ المناسبة، وإذا كانا معا عبر بلفظ الاكتناف، وهو كثير في الخطاب والغيبة.

---

(52) مثل اختياره "تفدوهم" (2 آ 85) بفتح التاء وإسكان الفاء، ص : 1008. وتنظر الصفحات التالية : 1034، 1096، 1122، 1126.

(53) مثل اختياره "ولولا دفع الله الناس" (2 آ 251) لأن دفع أكثر استعمالا من دفاع، ص : 1126.

(54) هذا الباب عريض تنظر عنه على سبيل المثال الصفحات التالية : 201، 204، 320، 326، 383، 590، 939، 969، وغيرها.

(55) تنظر أمثلة الاختيار للخفة في ص : 233، 806، 1153، 1157، 1253، 1266.

(56) صفحات : 1235، 1255، 1260، 1268، فيها مثلا اختيار الغيب في "بما يعملون خبير" (3 آ 180) والمناسب "ولا يحسبن" معا (178/3 وآ 180)، واختيار الغيب أيضا في "ليبيننه للناس ولا يكتمونه" (3 آ 187) والمكتنفان : من قبل : "الذين أوتوا الكتاب" ومن بعد "فنبذوه وراء ظهرهم"، ص 1274.

12) لكونه المحقق [57].

13) لزيادة الفائدة [58] معه.

وهكذا لو حاولنا تتبع دواعي الاختيار عند الجعبري لما وسعها مجلد، وسنخصص لها دراسة مستقلة ان شاء الله لدقة الاعتبارات وتداخلها.

صيغة الاختيار عند الجعبري :

إن شئت أن تقول : إن للجعبري صيغة واحدة للاختيار فلك ذلك حيث يكون المقصود بالاختيار "المصطلح عليه في علم القراءات" إذ لم نعثر له إلا على صيغة واحدة هي قوله – بعد توجيهه لكل القرآت – : "واختياري" كذا.

أما عندما يكون المقصود رأيه أو مذهبه في قضية ما، فإنه كغيره يعبر بعبارات مختلفة، بعضها صريح في اختياره كقوله – في إعراب "من يتقي" بإثبات الياء – : «وعندي أن قول أبي علي أقوى لثبوته في القرآن» [59]. وبعضها محتمل كقوله – مثلا تعبيراً عن مذهبه في صفة التكرار في حرف الراء – : « ومعنى قولهم مكرر أن له قبول التكرار ... [60] الخ » يعني أنه ليس مكررا بالفعل.

ويختم الجعبري هذه المرحلة عند نهاية كل باب أو فصل أو موضوع ما بتفريع يجمله نموذجا يحصي فيه عدد الوجوه من طرق القصيد ثم من طرق غيرها.

وقبل إنهاء هذه المرحلة نشير الى أن أكثر اختيارات الجعبري موافقة لما كان عليه المغاربة كمكي والداني وغيرهما.

(57) مثل إسكان ميم الجمع، ص : 209.

(58) مثل اختيار الهمزتين في "آعجمي وعربي" ص : 388.

(59) ذكر الجعبري قول أبي علي – وأضنه الفارسي – في قوله تعالى : " إنه من يتق ويصبر " (12 آ 90) بإثبات ياء يتقي في رواية قبل : " أن من بمعنى الذي .. " ثم قال : "وعندي ... الخ " كنز المعاني، ص : 939.

(60) تمام كلام الجعبري يفيد أن للراء قابلية التكرار، وليس التكرار صفة ذاتية فيها، وكونه صفة ذاتية فيها هو مذهب سيبويه.
ينظر كنز المعاني شرح البيت : 1157، في باب مخارج الحروف وصفاتها، وتنظر الرعاية لمكي بن أبي طالب، ص : 106- 108، والنشر لابن الجزري : 204/1، وتنبيه الغافلين، لأبي علي النوري الصفاقسي، ص : 49.

أسلوب الجعبري

المؤلفات في علم القرآت كثيرة ومتنوعة الأساليب ككل المؤلفات وهي إما مؤلفات مستقلة : منظومات أو مصنفات، وإما تابعة لأصل مرتبطة به : شروح أو حواش، والجعبري في "كنز المعاني" شارح فهو تابع لأصل، وهو منظومة الشاطبي.

وفي هذا الإطار ينبغي أن يدخل حديثنا عن أسلوب الجعبري وإلا وجب علينا أن ندرس أسلوبه في مؤلفات أخرى له حتى لا يكون الحكم على أسلوبه مبتسرا.

والأسلوب هو الأداة التي تضفي على المنهج ومحتواه رونقا وجمالا، وتجعل القارئ به أكثر إعجابا أو تنثر حوله غيوما فتصيره أكثر غموضا وتجعل القارئ له يقف حائرا متأملا فيعرض عنه إن كان الموضوع هينا، ويزداد تعلقا به إن كان الموضوع ذا أهمية، وسأتناول هنا مجموعة من العوامل التي أثرت في أسلوب الجعبري، ثم دراسة تطبيقية لأمثلة مختلفة مقتطفة من مواضع متعددة من أسلوبه في كنز المعاني وبذلك سيتكون هذا الفصل من مبحثين : التعريف بأسلوب الجعبري، ودراسة لأمثلة منه.

التعريف بأسلوب الجعبري

أسلوب الجعبري هو أحد مقومات منهجه في شرحه لحرز الأماني الذي اعتورته أقلام الشراح منذ ظهر الى يوم الناس هذا[61]. وليس من السهل التعريف بأسلوب الجعبري لأسباب نذكر منها سببين :

أولا : لأن الكبار وصفوه بالصعوبة وتهيبوه فكيف يتجاسر عليه مثلي.

---

(61) أقصد بيوم الناس هذا الشرح الذي يحاول إنجازه الفقيه السيد محمد السحابي الزعري بمدينة سلا، وهو يقرئ الطلبة حرز الأماني، عايشت هذا في سنتي 1414-1415 هـ موافق 1993-1994م

1) قال المؤرخ التركي الأصل أبو الخير أحمد بن مصطفى بن خليل طاش كبري زاده المتوفي سنة 968 هـ موافق 1561 م : «... ولا يقدر على حل رموزه – كنز المعاني– إلا من برع في علوم القرآن بل العلوم العربية والشرعية أيضا، ولا يعرف عسر ذلك الكتاب وقدر إتقانه إلا من خدمه حق الخدمة [62].

وإذا أمكن التماس الوجه لصاحب هذا الكلام لأنه تركي الأصل وهو بعيد، فلا يمكن إلا التسليم بما أشعرت به أوصاف حذاق علم القراءات وعلوم اللغة العربية معا من صعوبة أسلوب الجعبري.

2) قال أستاذ الجيل في القرن الثاني عشر الهجري، أبو زيد عبد الرحمن بن إدريس بن محمد بن أحمد الشريف الإدريسي الحسني التلمساني ثم الفاسي، المتوفي سنة 1179 هـ ملمحا إلى ما في أسلوب الجعبري من مقفلات ومغمزات، لما أراد أن يحشي عليه بكتابه : "فتح الباري" – «ثم إن الله تعالى لما أهلني للإقراء بكرمه وأولاني من جزيل نعمه انتهزت علاج بعض مقفله، وتمهيد بعض مغمزه» [63].

3) وهذا خاتمة المحققين في النصف الأخير من القرن الثاني عشر الهجري وأوائل القرن الثالث عشر، محمد بن عبدالسلام بن محمد بن عبد السلام بن محمد العربي بن أبي المحاسن، يوسف بن محمد الفاسي المتوفى سنة 1214 هـ. يقول : – واصفا أسلوب الجعبري في كنز المعاني – وقد عزم على تأليف حاشية عليه [64] – : «إذ كنت ساعة الاشتغال بمطالعته – كنز المعاني – وإعمال الفكر

---

(62) مفتاح السعادة : 46/2.

(63) فتح الباري على بعض مشكلات أبي اسحاق الجعبري : 1 / لوحة : 1، مصورة عن مخطوطة المكتبة العامة بتطوان، رقم : 414 –415 .

(64) هي كتابة "شذا البخور العنبري وبعض عزائم الطالب العبقري إعانة على فتح كنز العلامة أبي إسحاق الجعبري" لوحة : 1 مصورة عن نسخة مكتبة مولاي عبد الله الشريف بوزان، رقم : 802.

عند مراجعته كثيرا ما أبحث في حوزته لاستخراج ركزته [65] فتنبهم أحيانا سبله علي، وتزدلف (....) [66] مخدراته إلي، فكنت إذا سنحت لي وحشية من معاميه، أو سمحت حوشية من قراط مغانيه، قيدتها بالكتاب بفناء بابها، وحططت عنها النقاب بهتك جلبابها، خشية التفلت بعد إعطاء القياد» [67].

4) وقال ابن دراوة المكناسي [68]، بعد أن أمره شيخه أحمد بن مبارك السجلماسي بشرح كنز المعاني : «فاعتذرت له بما أنا أهله من التقصير، وسطوات الجهل والعجز والتحصير، وخاطبه لسان حالي بقول القائل :

ما أنت أول سار غره قمر ❁ ورائد أعجبته خضرة الدمن [69]

فرأيت هنالك مهامه تحار فيها القطا، وشوامخ تكل عند اقتحامها الخطى، ثم وقفت أتأمل الخوف عند فجأتها، لكن قدمت الرجاء عند رؤيتها، فقال لي : أشرع فيه بلا توان، وتوكل على الله ربنا المستعان» [70].

ثانيا : كان الذي سبق أولا، أما الثاني فهو أن عدة عوامل تفاعلت مع كنز المعاني فأثرت فيه حتى انتجت أسلوبا يمكن القول عنه : إنه ظاهرة متميزة، ومن هذه العوامل ما يلي :

1) الجعبري مسبوق الى حرز الأماني بكثير من الشراح،

(65) شبه معانيه بالمعدن النفيس المدفون في باطن الأرض الذي يعرف بالركاز.

(66) مكان النقط كلمة ممحوة بقي منها الألف أولا، يفترض أن تكون "أحيانا".

(67) شذا البخور العنبري، لوحة : 1.

(68) هو : أبو القاسم محمد بن عبد الرحمن بن أحمد البصري المكناسي الشهير بابن دراوة وأخبرني فضيلة الأستاذ محمد المنوني أن المكناسيين يقولون : ابن دريوة، دعاه السلطان مولاي اسماعيل – لما علم بحسن تجويده – ليصلي به التراويح ففعل وخلع عليه خلعة سنية وطلب منه صالح الدعاء، توفي سنة 1150 هـ حفظ الأماني ونشر المعاني لوحة : 2 – 3 : مصورة عن نسخة الخزانة الحسنية رقم 510. وتنظر، أطروحة الأستاذ الفاضل عبد الهادي حميتو : 1202/4، رقم 28.

(69) البيت لأبي محمد القاسم بن علي الحريري، ت 516 هـ، وبعده :

فاختر لنفسك غيري إنني رجل ❁ مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

بغية الوعاة للسيوطي : 259/2.

(70) حفظ الأماني ونشر التهاني، لوحة : 2 – 3.

وفيهم فرسان الميدان أمثال علم الدين السخاوي (ت 643 هـ)، وأبي عبد الله الفاسي (ت 656 هـ) وأبي شامة (ت 665 هـ)، أبي عبد الله الصنهاجي ابن آجروم، (ت 723 هـ) وغيرهم.

هـؤلاء وغيرهم شرحوا حرز الأماني كل بأسلوبه، وقد حظيت شروحهم بثناء المترجمين وخصوصا أهل هذا العلم، والجعبري لم يكن بالرجل الذي يسلم زمام القيادة لغيره بسهولة. ومن أجل ذلك حاول أن يكون شرحه الشرح الذي يغني عالم القراءات عن كل هذه الشروح، وكذلك كان في نظر الكثيرين، وخصوصا كبار العلماء بعلم القراءات.

2) ثقافة الجعبري ذات الجوانب المتعددة المختلفة، بل المتباينة، لأنه عالم باللغة : بغريبها وصرفها، ونحوها، وبلاغتها، ومؤلف في كل ذلك، وعالم بالشعر وقوافيه، وأوزانه وعروضه ومؤلف في كل ذلك، وهو عالم بالفقه : فروعه وأصوله، ومؤلف فيهما، وهو عالم بالحديث ومصطلحه، ومؤلف فيه.

والجعبري أيضا مشارك في علوم : المنطق والفلك والتوقيت وغيرها، ومؤلف في ذلك كله.

ولما أراد الجعبري أن يشرح حرز الأماني لم يستطع أن يتخلص من خصائص أسلوب كل علم من هذه العلوم، ولا سيما أن علوم اللغة وعلوم القراءات مرتبطة أشد ما يكون الارتباط.

ويتوقع القارئ لترجمة الجعبري – وهو يستعرض النعوت التي تثبت نبوغه في علوم شتى – أن يكون لكل علم تمكن منه أثر على أسلوبه، وهكذا جاء أسلوب الجعبري مزيجا من الاستطرادات التي أراد بها سد الطريق على كل معترض بحكم ما، ففتح بذلك الطريق أمام اعتراض عريض. ذلك أن قارئ كنز المعاني بالخصوص يجد نفسه في آن واحد مع الشرح اللغوي بالمرادف ومع الإعراب ومع قواعد العروض والتعريف بشخصية ما، الى غير ذلك ...

3) الجعبري تعود في كثير من مؤلفاته على اختصار

المختصرات، والاختصار يحتاج الى التحايل على اللغة، وكان من نتائج هذا التعود أن يظهر أثره في كنز المعاني فجاء أسلوبه فيه أكثر صعوبة.

4) إن موجة الاختصار في التأليف في مختلف العلوم، كانت قد بلغت ذروتها في عصر الجعبري، في الفقه مع شيخه ابن يونس (ت 671 هـ) في فروع الشافعية بكتابه " التعجيز في مختصر الوجيز " [71]، الوجيز الذي هو اختصار للبسيط والوسيط، وكلها لحجة الإسلام الإمام الغزالي (ت 505 هـ).

وقد ابتدأت الموجة في هذه الفروع مع حرملة بن يحيى التجيبي المصري (ت 243 هـ)، في "مختصره في فروع الشافعية "وبعده إسماعيل بن يحيى المزني (ت 264 هـ)، في مختصره أيضا، إلى أن توجها الجعبري بسلسلته : "تتمة التبريز في شرح التعجيز " و"تتمة التطريز في شرح التعجيز " و"التحييز [72] في حواشي التعجيز".

وفي اللغة العربية والفقه والأصول جميعا بلغت الموجة ذروتها مع أبي عمرو عثمان ابن عمر بن الحاجب (ت 646 هـ) : الكافية في النحو، والشافعية في التصريف، ومنتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل ". واختصاره لهذا الأخير، ثم اختصاره للمختصر الى أن أصبح سلسلة مختصرات من المختصرات، الى أن توجها الجعبري أيضا - لإعجابه بابن الحاجب وأسلوبه - بمشتهى النهول في علم الأصول، و"مشتهى النهول والعلل مختصر من مختصر منتهى السول والأمل " [73].

وكذا الأمر بالنسبة لفروع الحنفية مع مختصر أبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي (ت 321 هـ) في مختصره ومختصر القدوري أحمد بن محمد البغدادي (ت 428) هـ ومختصر الكرخي عبد الله بن الحسين (ت 428 هـ) أيضا، وفي فروع الحنابلة مع مختصر الخرقي

(71) كشف الظنون : 1 / 417.

(72) الهبات الهنيات : 65/ ب، وفي مقدمة التحقيق لرسوخ الأحبار التنجيز بدل التحييز.

(73) الهبات الهنيات : 66 / أ.

أبي القاسم عمر بن الحسين الحنبلي (ت 334 هـ) وشرحه : المغني لابن قدامة المقدسي (ت 620 هـ). ولعل الجعبري كان قدوة للشيخ خليل ابن إسحاق (ت سنة 776 هـ). الذي أراد أن يختصر فروع المذهب المالكي بعد طول أمد فجاء أسلوبه في غاية التعقيد.

وهكذا أصبحت صياغة الثقافة في عصر الجعبري - بل قبله وبعده - صياغة يطبعها الاختصار لإحساس المؤلفين بقصور الهمم عن تتبع المطولات، واعتقادهم - والأمر كذلك - أن مخاطبيهم يفهمونهم، فلا يلام الجعبري إذا كانت صياغته على الشكل الذي كان يلائم مخاطبي ذلك العصر.

5) موضوع الجعبري في كنز المعاني هو شرح حرز الأماني - كما سبق - وحرز الأماني - كما هو معلوم - كتاب حاول فيه الشاطبي أن يلخص ما يقارب أربعة قرون من التجارب والعطاءات في علوم القراءات فاستعان على ذلك بالرموز بدل الأسماء، وقد تناوله الشراح قبل الجعبري وبعده ما بين موجز ومطنب، فلم يستوعبه أحد قبله كما أراد، لأن استيعاب تلميحات الشاطبي تحتاج الى ملجدات، فكان على الجعبري أن يستوعب ويختصر في نفس الوقت، وليس من السهل - إن لم يكن من المستحيل- الجمع بين الاستيعاب والاختصار بأسلوب واضح يفهمه المبتدئ كما يفهمه المنتهي.

ويظهر أن الجعبري بالغ في التركيز على قضايا اختلاف القراءات وبيان علة كل وجه فطرقها [74] بكل وجه : تارة شارحا، وتارة منبها، وتارة مذيلا أو مشيرا أو معنونا بأي عنوان يعطيه الحق في العودة الى الموضوع ليحيط بجميع جوانبه، فأوقعه ذلك - مع عنايته بدقائق اللغة العربية وشواردها - في مخالفات للأفصح أو الفصيح من قواعد اللغة العربية. واضطره الى استعمال الغريب أو الشاذ من الكلمات أو العبارات [75].

(74) أعني قضايا الخلاف.

(75) سيتضح ذلك بالأمثلة في المبحث الثاني.

اعتنى الجعبري إذا بالخلاف وضوابطه وتوجيهه عنايته بشوارد اللغة والإعراب، وكان ذلك في كثير من الأحيان على حساب الأسلوب وقواعده، وعلى حساب قوانين البلاغة والفصاحة.

دراسة تطبيقية لأمثلة من أسلوب الجعبري

لتوضيح ما أجملته من الحديث عن أسلوب الجعبري سأضرب أمثلة من بعض الجوانب التي اهتم بها كثيرا فأثرت على أسلوبه، من خلالها سأحاول إبراز قيمة الجعبري إضافة أو تتميما للحديث عن شخصيته ومكانته العلمية.

أولا : قضايا مختلفة تسبب غموضا وتعقيدا في أسلوب الجعبري.

تبين مما سبق أن أسلوبه يرتكز على الحيطة المبالغ فيها وإن أدى الأمر إلى تعقيد الواضح وتصيير السهل ممتنعا، فيصير غامضا غير مفهوم وإن دافع عنه المنجرة وابن عبد السلام الفاسي اللذين اعتبرا ذلك امتحانا لعقول المتعلمين [76].

مثال أول :

بعد فراغ الجعبري من شرح قول الشاطبي – في آخر بيت من باب إدغام الحرفين المتقاربين في كلمة وفي كلمتين – :

خذ العفو وأمر ثم من بعده ظلمه ❁ وفي المهد ثم الخلد والعلم فاشملا[77]

بعد انتهائه من تفريع وجوه قوله تعالى : ﴿*فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق*﴾ [78] قال :

«خذ لكل عشرة من الأربعين واحدا تكون أربعة ثم اضربها في

(76) فتح الباري : 109/1، وشذا البخور العنبري، لوحة : 95.

(77) البيت : 157.

أربعة ترتفع إلى ستة عشر. خذ لكل واحد عشرة فالمجموع مائة وستون، ثم اضرب الأربعة في الثمانية اثنان وثلاثون، ضمها إلى مائة وستين، فالحاصل مائة واثنان وتسعون [79].

قال ابن عاشر : «ما سمح بالتسهيل والبيان حتى في مسألة فيه، وقد كان أوضح من هذا أن يضرب ثمانية وأربعين في أربعة، أو يفك فيضرب ثمانية في أربعة ثم أربعين في أربعة، ويحصل المطلوب، أما صنيعه فبعيد» [80].

مثال ثان :

في شرح الجعبري لقول الشاطبي :

وطاسين عند الميم فاز اتخذتم ❁ أخذتم وفي الأفراد عاشر دغفلا [81]

قال : « إن المسائل إذا تعددت بعد الرمز فلا تضم إلى السابقة إلا إذا لم يعقبها قارئ، أو وقع قبل القراءة وإلا فلا» [82].

انظر إلى تكرار هذه الأدوات : لا، لم، وإلا فلا، لا تضم.. إلا إذا لم ... أو وقع ... وإلا فلا.

لا تستقيم – مع تكرار هذه الأدوات – قاعدة تكرار النفي التي قيل فيها :

قاعدة النفيين إن تكررا ❁ حذفهما منطوق قول قد جرى

ولا يفهم منه المقصود بسهولة ويسر [83].

مثال ثالث :

في شرح الجعبري لقول الشاطبي :

---

(79) كنز المعاني، النموذج المحقق، ص : 303 من الأطروحة.

(80) فتح الباري : 109/1.

(81) البيت : 283 من باب حروف قربت مخارجها.

(82) كنز المعاني شرح البيت المذكور قبله، ص : 610 من الجزء المحقق وص : 161 من الأصل.

(83) قد استوفيت الحديث عن الموضوع في الجزء المحقق المفقود.

عليهم إليهم حمزة ولديهم * جميعا بضم الهاء وقفا وموصلا [84]

أثناء حديثه عن الألفات المجهولة الأصل مثل :لدى وعلى قال : « وليس لهذه الألفات انقلاب، عدلوا بها الى الياء المجانسة [85]».

أقول : لعل القارئ يلاحظ معي أن بين الجملتين تقاطعا بسبب نفص ما، فلو زاد مثلا لفظ : لذا، بين "انقلاب"، "وعدلوا" لأصبح الكلام مفهوما، لأن معنى الجملة الأولى علة لمعنى الجملة الثانية. ولكي يكون الكلام واضحا كان ينبغي أن يقول مثلا : «ولما لم يكن لهذه الألفات أصل معروف عدلوا إلى قلبها ياء مجانسة» أو يقول : «ولما كان أصل هذه الألفات مجهولا عدلوا الى قلبها ياء مجانسة».

مثال رابع :

بعد شرح الجعبري لكل من الأبيات الثلاثة من قول الشاطبي وطاسين عند الميم فاز اتخذتم، الى قوله : يعذب دنا بالخلف جودا وموبلا"[86].

وبعد توجيهه للقراءات في كل بيت عاد ليجمل الأوجه وتعليلاتها في الأبيات الثلاثة فقال في جملة ما قال : «وأدغم قالون وخلف وخلاد يعذب من، وأظهر خلف اركب وهما في أحد الوجهين مناسبة يعذب بالطرفين وتوفير لحروف الأمر في اركب» [87].

فلولا الرواية لما عرفنا معاد الضمير في قوله : وهما، بل حتى: الوجهان ليسا واضحين لمن هما، ؟ وفي أي شيء ؟ ولفظ مناسبة كيف يعرف ؟ وكذا لفظ "توفير".

والخلاصة أن الجعبري ضحى بكثير من قواعد اللغة لحساب

---

(84) البيت : 110.

(85) كنز المعاني شرح البيت المذكور، ص : 204 من النموذج المحقق.

(86) الأبيات من 283 – 285، من باب حروف قربت مخارجها.

(87) كنز المعاني، شرح الأبيات السابقة، ص : 615 من الجزء المحقق، وص : 163 من الأصل.

الخلاف وتوجيهه فكان أكثر كتب الخلاف استيعابا، وأشد كتب النحو صعوبة.

مثال خامس :

فرع الجعبري على قوله تعالى : ﴿*وإن تبدوا ما في أنفسكم، أو تخفوه ... الى قدير*﴾ [88] فقال : «قالون بإدغام يعذب وقصر شيء بمديه مع ترك الصلتين وبهما مع صلة الميم أربعة» [89] فكيف للقارئ المبتدئ أن يستخرج الأوجه الأربعة من هذه الجمل شبه المقطعة، إذا أسلوب الجعبري مرصف أساسا للمتمرسين لا للمبتدئين.

مثال سادس :

بعد فراغ الجعبري – في باب الإظهار والإدغام – من شرح الأبيات الثلاثة المتعلقة بحكم ذال "إذ" من قول الشاطبي :

نعم إذ نمشت زينب صال دلها إى قوله : **وأدغم مولى وجده دائم ولا**[90].

أراد – كعادته – التنبيه على بعض المفاهيم في الأبيات الثلاثة وعلاقتها بقواعد الباب قبلها فقال من جملة ما قال : «وفهم من قوله : يتقدم شيء يتقدم عليه ويتأخر عنها، وهو واصف جلا، وقس عليه البواقي» [91].

أقول : قد يفهم القارئ لهذا الكلام في موضعه من الكتاب بعد قراءته لما قبله، أن الموضوع يتعلق بالواو الفاصلة المذكورة في قول الناظم قبل : «سأسمي وبعد الواو ... الخ» ولكن معنى الكلام محير وخصوص للمبتدئ لغموضه بسبب تعقيده، ومن أسباب التعقيد هنا ما يلي :

(88) سورة البقرة آية : 284.

(89) كنز المعاني، شرح البيت : 285، ص : 617 من الجزء المحقق و163 : أصل.

(90) الأبيات من 259 الى 261 في باب الإظهار والإدغام.

(91) كنز المعاني، شرح البيت : 261، النموذج المحقق، ص : 567.

1) قوله : وفهم من قوله يتقدم شيء، لا يفهم القارئ منها إلا أن عبارة يتقدم شيء "من كلام الشاطبي، وكلام الشاطبي نظم، يستحيل أن يكون ذلك منه، وسبب ذلك قوله : من قوله، بدل : من كلامه، مثلا، فالبيان يقتضي أن يقول : وفهم من كلامه.

2) استعماله لفظ شيء : النكرة - في موضع يحتاج إلى التمثيل - وإعادة الضمائر : يتقدم عليه، يتأخر عنه أو عنها، وهو واصف جلا.

3) الإجمال في التمثيل بقوله : وهو واصف جلا وقس عليه البواقي. لأن القارئ إذا لم يتصور بوضوح المقيس عليه فماذا يقيس وعلى أي شيء يقيس ؟.

وخلاصة كلامه أن الواو الفاصلة التي تقدم التعريف بها في أول المصطلح، قد يتقدم عليها شيء ويتأخر عنها شيء آخر كقول الناظم في آخر الأبيات الثلاثة، «وأظهر ريا قوله واصف جلا» فالواو الفاصلة وهي التي في قوله : واصف تقدم عليها قارئان هما المرموز لهما بالراء والقاف من قوله : ريا قوله. وهما الكسائي وخلاد وتأخر عنها الحرف الذي يظهر عنده ذال إذ وهو الجيم في جلا [92]، لاحظ معي كيف حاول الجعبري أن يطوي - بل طوى بالفعل - هذا الكلام في سطر واحد.

مثال سابع :

بعد إفاضة الجعبري في الكلام على باب التفعل بعد شرحه للأبيات من :

وفي الوصل للبزي شدد تيممو ❁ إلى...تفكهو ❁ ن عنه على وجهين فافهم محصلا[93]

وبعد إشارات - كالعادة - وبعد توجيه للتخفيف والتشديد وبيان الفرق بين ما فيه قبل المدغم ألف أو واو ساكنة، أو متحرك أو

---

(92) ينظر معناه في شذا البخور العنبري، لوحة : 166، وتنظر خلاصته في النموذج المحقق، ص:567.من أطروحة الباحث.

(93) الأبيات من 526 إلى 536، من فرش الحروف بسورة البقرة.

ساكن من غير حروف المد واللين قال : «واختياري التخفيف لانه أخف وأعم وأشهر، وقاوم قرب الأصل عدم إسكان أول الكلمة والرسم بواحدة» (94).

تأمل هذا الأسلوب وانظر الى كم يحتاج القاريء المبتديء من الوقت ليفهمه، هذا إذا أمكنه فهمه، لأن الجعبري جعل كل كلمة بمثابة عنوان، فلفظ : أخف تعني أن عدم الإدغام – وهو هنا التخفيف وليس الإظهار بمعناه الاصطلاحي – أخف من الإدغام في اللفظ، ولفظ أعم يعني أن التخفيف يعم حالة الابتداء المتفق عليها وحالة الوصل المختلف فيها، وأشهر يعني أنه أشهر في الاستعمال والرواية من الإدغام، لأن المدغم هو البزي والمخفف الجماعة، وقوله : «قرب الأصل عدم إسكان ..» فيه إبهام، ما الفاعل وما المفعول ؟ فلو جعل الثاني مفعولا لفسد المعنى، ولو جعل الأول – وهو كذلك – لكان فيه إبهام : أولا لقلب القاعدة دون غرض بلاغي وثانيا لأنه عبر بقرب الأصل لا بالأصل، ولعل ذلك لاختلاف في الباب بين الأفعال المذكورة وبين غيرها ولاتحاد المصاحف في الرسم بتاء واحدة.

ثانيا : الغموض بسبب مجازفة نحوية :

ما مر الجعبري بقضية خلافية إلا أثارها وأشار بالخلاف الى طائفة، وهو تارة مع الجمهور وتارة مع غيرهم، تارة يوافق أهل الكوفة وتارة يوافق أهل البصرة، وقضاياه يختلط فيها النحو باللغة والتصريف وغيرهما، وهي من الكثرة بحيث لا يسوغ تتبعها، وماذا سأعالج منها إذا كان خاتمة المقرئين الكبار الشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي قال في بغضها : «الله أعلم بموقع تنظيره» (95) وسأقتصر على أمثلة :

مثال أول : جملة الصلة :

في إعراب الجعبري لقول الشاطبي : «عنيت الأولى أثبتهم بمد

---

(94) كنز المعاني، شرح الأبيات السابقة، ص : 284 من الأصل ومن التحقيق، ص : 1153.

(95) قال ذلك معلقا على قول الجعبري في شرحه للبيت : ومنهن للكوفي ... 49. «ومنهن من حروف أبجد على حد فسواهن» شذا البخور، لوحة : 48.

نافع [96] ذكر الموصول وصلته والظرف ثم قال : «وهما مفعولا عنيت»[97].

فتثنية الضمير مشكل إذ لا يمكن صرفه إلا للموصول وصلته. وذلك يفضي إلى القول بأن الجعبري ممن يقولون بأن جملة الصلة لها محل من الإعراب، وهو خلاف ما عليه جمهور النحاة من أن جملة الصلة لا محل لها من الإعراب، ويؤكد الاحتمال المنسوب للجعبري هنا تصريحه بذلك سابقا في قوله : «والصلة والموصول رفع بالابتداء» [98].

مثال ثان : عطف مشوش :

في شرح الجعبري لقول الشاطبي :

وأما الإمام المازني صريحهم ❁ أبو عمرو البصري فوالده العلا [99]

قال عن أبي عمرو : «كان ثقة عدلا زاهدا، يتصدق بالجوائز، وينفق من أرض ورثها من أبيه، من أئمة النحو وأعرف الناس بالشعر وكلام العرب متمسكا بالآثار» [100].

انظر إلى عطف جملتين : يتصدق وينفق على المفردات : ثقة عدلا، زاهدا، ثم الانتقال الى عطف آخر : من أئمة النحو ... ثم العودة إلى عطف المفردات متمسكا بالآثار ... – تر عطف الجمل على المفردات وعطف المجرور على المنصوب والعكس، مما سبب اضطرابا في فهم كلامه وقد نسب ابن عبد السلام الفاسي – في الموضوع – الوهم لغيره في فهم كلام الجعبري [101] بسبب ذلك.

مثال ثالث : دقائق نحوية تشغل القارئ :

في إعراب الجعبري لقول الشاطبي :

(96) البيت : 50.

(97) كنز المعاني، شرح البيت قبله : النموذج المحقق، ص : 107-108.

(98) كنز المعاني، شرح البيت الرابع : وثلث أن الحمد : ص 25.

(99) البيت : 29.

(100) كنز المعاني، شرح البيت قبله، ص : 62.

(101) شذا البخور العنبري، لوحة : 36.

وأبدت سنا ثغر صفت زرق ظلمه ❁ ....

قال : «سنا – مقصور واوي – : الضوء، مفعول مضاف الى ثغر : مقدم الأسنان، وصفت صفته لفظا»(102).

ولنا على هذا الكلام ملاحظتان :

الملاحظة الأولى على قوله : وصفت صفته لفظا، إذ المعروف عند النحاة أن النعت يتبع منعوته ... قاعدة عامة، وأنه بيان أو زيادة بيان للمنعوت، وهذا هو المألوف، ولكن قد يكون اللفظ الوصف تابعا لموصوفه في اللفظ فقط كما هنا، فمعنى صفت واقع فيما بعده لا في موصوفه الذي قبله وهو ثغر هنا، ولذا كانت لفظة لفظا ذات معنى يشغل البال.

والملاحظة الثانية : هي ملاحظة على قضية تعتبر لازمة من لوازم أسلوب الجعبري، وهي ما يلاحظ من كثرة الفصل بين المتلازمين موضوعا، ذلك مثلا أن قوله : مقصور واوي، هو تعريف للفظ سنا، تعريفا تصريفيا، وقوله : الضوء، هو تعريف آخر للفظ سنا، وهو تعريف لغوي بالمرادف، وقوله مفعول مضاف إلى ثغر، هو تعريف موقعه من الإعراب، وهو المطلوب أولا، لأن الموضوع إعراب البيت، لكن الجعبري يجر كل التعاريف دفعة واحدة، ويقدم غير المطلوب على المطلوب، يريد بذلك أن يضمن لنفسه عدم العودة إلى الموضوع فيقحم التعريفين غير المطلوبين بين المبتدأ والخبر، وقد يقال : إن التعاريف الثلاثة كلها أخبار، وهو كذلك لأن كل خبر هو تعريف لجانب من المبتدأ، لكن كل موضوع يفرض التعريف المناسب له، وقد يكون غيره مرغوبا عنه.

وهذه قضية لا يكاد يخلو منها إعراب الجعبري لبيت واحد من أبيات الشاطبية ولنا عليها عشرات الأمثلة لا نطيل بذكرها.

مثال رابع : الفصل الطويل المشوش :

بعد شرح الجعبري قول الشاطبي :

(102) كنز المعاني، شرح البيت السابق، 266، النموذج المحقق، ص : 575.

وبحسب كسر السين مستقبلا (سما) ❁ رضاه ولم يلزم قياسا موصلا[103].

وبعد توجيهه لقراءتي الفتح والكسر لسين يحسب واختياره الكسر لأنه الفصحى وفاقا لأبي عبيد قال :«لكن قوله اختيارا كما[104] حفظ عن النبي ﷺ، قال لقيط [105] رضي الله عنه قال : كنت وافد المنتفق الى رسول الله ﷺ، فبينما نحن عنده إذ روح الراعي غنمه، فقال ﷺ : ما ولدت غنمك ؟ قال بهمة، قال : اذبح مكانها شاة، ثم قال : لا تحسبن أنا من أجلك ذبحناها : بكسر السين، وكذا رواه الفراء عن أبي سليمان [106] العطار الملكي عنه عليه السلام، لا يدل على الرجحان وإنما يكون كذلك أن لو اقتصر عليها [107]».

تأمل قول الجعبري : لكن قوله اختيارا، مع قوله : لا يدل على الرجحان فإن كانا مرتبطين في المعنى فبينهما قصة طويلة، وإن لم يكن بينهما ارتباط فما موقع كل منهما ؟ وما معناه ؟.

الضمير في : لكن قوله، لا يمكن صرفه إلا لأبي عبيد، والمعنى أنه اختار قراءة يحسب بكسر السين، ومعنى كون الكسر اختيارا له أنه روى الفتح والكسر واختار الكسر، وكونه اختار الكسر لا يرجحه في نفس الأمر، وهذا المعنى سليم على أساس ارتباط الطرفين لو ساعد عليه استعمال الجعبري لقواعد اللغة استعمالا مألوفا غير ناشز لأن فرض الارتباط يقضي أن تكون جملة «لا يدل على الرجحان» خبر لكن المشددة النون، أو خبر قوله مع تخفيف نون لكن ويكون : اختيارا، من لفظ أبي عبيد.

---

(103) البيت : 538.

(104) في النسخ : ب، خ، ز : لما.

(105) هو لقيط بن عامر بن المنتفق بن عامر العامري العقيلي صحابي وافد بني المنتفق، الإصابة : 330/3، وخلاصة الخزرجي، ص : 323.

(106) هو أبو سليمان داود بن عبد الرحمن العطار : كتاب الكنى للدوالبي : 193/1، وصنيع الجعبري يوحي بأنه صحابي، ولم يذكره ابن حجر في الإصابة.

(107) كنز المعاني، شرح البيت السابق : 538، ص : 285 – 286 من الأصل ومن التحقيق، ص : 1162.

وعلى تقدير عدم الارتباط يكون قوله : «لكن قوله اختيارا» كلاما تاما لكنه يحتاج إلى إصلاح في الإعراب، ويبقى أن قوله : لا يدل على الرجحان معلق في الهواء لا أساس له يستند إليه.

ولو كان الجعبري قد جمع بين الطرفين ثم أعقبهما بالقصة تأكيدا، لما أوقع القارئ في هذه الحيرة.

ومن هذا القبيل الفصل بين المبتدأ والخبر بالكلام الطويل قال في تفسير الديم. في قول الشاطبي : «ديما وهطلا : والديم جمع ديمة كلين ولينة، أو جمع ديم جمع ديمة كجيزة، وجيز وجيز، وفي الحديث "كان عمله عليه الصلاة والسلام ديمة [108]" العطر الدائم برفق أقله يوم وليلة [109].

فعبارة : المطر الدائم برفق، خبر عن : والديم، في أول الكلام، انظر معي ما أكثر هذا الصنيع في أسلوب الجعبري.

ومن المجازفات النحوية عنده. العطف بعد طول، والفصل بين المعطوفين بأجنبي والمخالفة بين الضمائر، قال في شرح البيت :

فمنهم بدور سبعة قد توسطت ❁ ....

«أشار بملهم إلى كثرتهم، وهذه شهادة منه على أنه لم يذكر في كتابه هذا كل الأحرف السبعة الواردة في الخبر الصحيح بل بعضها، وإلا لقال نحو : فهم بدور، وبتوسطها إلى كمالهم [110].

انظر كم بين المجرورين المعطوفين : (بمنهم، وبتوسطها) من الكلام ؟ فماذا كان يضير الجعبري لو أخر الشهادة إلى ما بعد المعطوفين ووحد ضميرهما ؟ ولكنها طبيعته التي لا يرضي عنها بديلا.

ومن مجازفاته في أسلوبه انتقال وفصل غير سليمين :

---

(108) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الصيام من الصحيح، باب : هل يخص شيئا من الأيام ؟ فتح الباري : 206/4، وأخرجه مسلم في الصحيح كتاب صلاة المسافرين.

(109) كنز المعاني، شرح البيت : 82، النموذج المحقق، ص : 148.

(110) كنز المعاني، شرح البيت المشار اليه 21، تحقيق، ص : 50.

فمن الأول قوله : «وانتصاب المستقبل بعد لام كي بأن مقدرة توفيرا لمقتضاها، انتقل الى بيان اصطلاحه في عبارات وجوه القراءات» [111].

أقول : إخباره بانتقال الناظم إلى ما ذكر راجع للبيت المشروح قبله فلو قال الجعبري بعد كلمة لمقتضاها : وهذا انتقال منه إلى ... لكان نظم الكلام سليما. ولكنه يفضل أن يقول : توفيرا لمقتضاها. انتقل".

ومن الثاني ما جاء في تفسيره لفظ إلى بمعنى النعمة في شرح البيت : وننسخ به ضم وكسر كفى وننسها مثله من غير همز ذكت إلى [112].

قال : «والى – ويجوز في غير الرواية فتحها –، نعمة، تمييز أو حال» [113] الطبيعي في إعراب هذا الكلام أن : وإلى مبتدأ، وتمييز أو حال خبر، ولكن الجعبري فضل أن يفصل بين المبتدأ والخبر بتفسيرين – كما سبق – أحدهما جملة والآخر مفرد. ومثل هذا كثير جدا.

ومن مجازفاته تشبيه غريب قد لا يخطر على الباب إقحامه. جاء في تحليله لقضية قلب السين صادا في لفظ الصراط : أنه مناسبة الطاء بالاستعلاء والإطباق والتفخيم مع الراء استثقالا للانتقال من سفل إلى علو، بخلاف العكس نحو طست، لأن الأول عمل والثاني تركه خلافا للأرنب [114].

تأمل معي هذا الكلام وانظر ما تفهم منه. أما أنا فقد فهمت منه بعد طول عناء أن الصاد والطاء متجانسان بخلاف حرف السين فانه مستقل وهما مستعليان، والانتقال من الأسفل الى الأعلى أي من السين الى الطاء أثقل من العكس أي من الطاء الى السين، وأن ذلك يخالف حال الأرنب.

(111) نفس المصدر، شرح البيت : 57، (وما كان ذا ضد ...) تحقيق، ص : 115.

(112) البيت : 475.

(113) شرح البيت المذكور قبله، ص : 255 من الأصل ومن التحقيق، ص : 1023.

(114) كنز المعاني، شرح البيت : 109 تحقيق، ص : 200.

فما علاقة الأرنب بالموضوع إذا ؟ الذي فهمته أيضا بالتجربة والمشاهدة لا بالنقل والرواية أن الأرنب تتقن الجرى من الأسفل إلى الأعلى بغير مشقة دون العكس، فإنها وإذا جرت الى الأسفل وكان يتبعها كلب صيد مثلا لا تستطيع الإسراع وإذا أسرعت انقلبت على ظهرها، وأمسكها الكلب بسهولة، ولكنها إذا جرت إلى الأعلى لا يستطيع كلب الصيد أن يلحق بغبارها فيكف له بإمساكها ؟

لكن كيف تم إقحام هذا التشبيه ؟ إنها غرابة الجعبري أو براعته !

وهكذا من يقف مع الجعبري يتأمل أسلوبه وخصوصا إعرابه لأبيات الشاطبية قد ينسى أنه يقرأ كتابا في القراءات، تأمل إعرابه لأي بيت وليكن على سبيل المثال البيت الرابع : **وثلث أن الحمد لله دائما**

تجد نفسك كأنك مع أبي زيد عبد الرحمن المكودي المتوفى بعده بمدة ليست بالقصيرة في إعرابه لألفية ابن مالك ومع محشيه ابن الحاج وأمثالهما الذين اهتموا بالإعراب اهتماما كبيرا، فهل كان للجعبري تأثير عليهم ؟.

ثالثا : إثارة المباحث اللغوية :

أثار الجعبري كثيرا من المباحث اللغوية المطولة التي لا تترك للقارئ المبتدئ حبل الاتصال موصولا، بل قد تشوش على القارئ المنتهي، لكنها بحوث تشفي الغليل لمن احتاج اليها وأراد أن يتوسع في البحث ، وأحيانا كثيرة يشغل الجعبري بال القارئ باستعمال غير مألوف مع التصريح أحيانا بمخالفته لمدرسة من المدارس القديمة، ولنضرب لذلك الأمثلة التالية :

مثال أول :

بعد شرح الجعبري لقول الشاطبي في فرش حروف سورة البقرة : وكسر بيوت والبيوت يضم عن : حمى جلة وجها على الأصل أقبلا [115].

(115) البيت : 503.

وبعد تذييل وإشارات لجمع نظائر البيوت، كعيون وغيوب وجيوب وشيوخ واستيعاب الخلاف في القراءات لجميعها شرع في التوجيه فقال مستغرقا في البحث اللغوي والتصريفي :

«وجه ضم الكل الأصل في الجميع كقلب وقلوب، لهذا قال وجها. على الأصل، ووجه كسرها مجانسة الياء : استثقالا لضمة الياء بعد ضمة وهي لغة معروفة، وقد روى سيبويه مجانسة التصغير نحو عيينة وبييت، وهي أخف، فإن قلت : الفرق وجود فعل دون فعل [116]، قلت : خروج هذا عن مطلق الأصول كخروج ذاك عن مطلق التصغير، وأيضا فنحن لم نثبت اتباع الكسر قياسا على التصغير فلا يجذبك الفرق بل أريد [117] نظيرا، وكثيرا ما يتعارضان [118]، قال النحاس : لا يجوز غير الضم، أي لأداء الكسر إلى بناء مرفوض، قلت : قد ثبت الكسر لغة ورواية، فهذا الإثبات مقدم على نفيه، وفعول مغتفر للعروض، وقال الزجاج : أكثر النحويين لا يعرفونه، وهو عند البصريين رديء، قلت : فالأقل يعرفه فلا ينافي الجواز، وإن عني بالرديء القلة فسوء أدب أو حقيقة فافتراء ... الخ [119]».

لاحظ معي كيف يسترسل الجعبري في البحث التصريفي اللغوي وهو يقرر كيفية قراءة كلمة قرآنية – مع أقطاب اللغة، يفترض بعضهم ويسمي بعضهم، مستدلا بقول بعضهم، ومبطلا قول البعض الآخر، بمنطق محبوك المقدمات « قد ثبت الكسر لغة ورواية فهذا الإثبات مقدم على نفيه، إن عني بالرديء القلة فسوء أدب أو حقيقة فافتراء».

مثال ثان :

في البيت الأخير من باب المد والقصر قال الشاطبي :

(116) الأولى بكسر ففتح والثانية بكسر فضم : فتح الباري : 2/ لوحة : 40.

(117) في الأصل : أورد نظيرا.

(118) هـ : يتقارضان بالقاف وهي أنسب.

(119) كنز المعاني، شرح البيت : 503 المذكور قبله، ص : 268 من الأصل ومن الجزء المحقق، ص : 1082.

وفي باب سوأت خلاف لورشهم ❁ ومن كل الموءودة اقصر وموئلا [120]

ولما أراد الجعبري توجيه قصر واو موئلا والموءودة قال : «وجه قصر موئلا والموءودة عروض سكونهما لأنهما من وأل ووأد، وليعادل موئلا موعدا، وليلا يجمع بين مدتي المؤودة، وبهما [121] فارقا نحو : "يابئس" وأما "سوءات" فجمع سوأة وفعلة الإسم إذا جمعت بالألف والتاء فتحت عينها كتمرة وتمرات [122] فرقا بينه وبين الصفة كصعبة وصعبات، ثم خصوا من الإسم المضاعف فسكونه كسلة وسلات، محافظة على الإدغام، وسكنوا الأجوف أيضا كجوزات وبيضات، محافظة على ذات عينه، وفتحت هذيل عين المعتل على الأصل، وصححوها محافظة على صيغة الجمع قال شاعرهم :

أخو بيضات رائح متأوب ❁ رفيق بمسح المنكبين سبوح [123]

هكذا يسترسل الجعبري في البحث فيصير القراآت واللغة علما واحدا، فانتقل من موئلا والمؤودة فجأة الى حكم سوآت. فصال وجال وساق في حكمها لغز الحصري وأجوبة القراء عليه، ثم أجابه بقصيدة من تسعة أبيات هي بحث لغوي صرف استغرق نحو صفحتين من القطع الكبير – بالخط المدمج – فكيف يستطيع القارئ المبتدئ أن يتابع الجعبري ؟!

مثال ثالث : استعمال غريب :

في شرح البيت الأول من باب الهمزتين من كلمتين وهو :

وأسقط الأولى في اتفاقهما معا ❁ إذا كانتا من كلمتين فتى العلا [124]

---

(120) البيت : 182.

(121) ضمير التثنية مشوش والواقع أن الضمير يعود على ما ذكر وما ذكر هو عرض سكون الواو، ومعادلة موئلا لموعدا، والفرار من الجمع بين مدتي المؤودة، فهي ثلاثة أشياء، ينظر الجزء المحقق، ص : 369، وينظر الكشف من وجوه القراآت : 49/1.

(122) قال ابن الحاجب : "وإذا صحح باب تمرة قيل تمرات بالفتح، والإسكان فيه ضرورة الشافية لابن الحاجب في التصريف، باب الجمع الثلاثي.

(123) كنز المعاني، شرح البيت : 182، النموذج المحقق، ص : 369. وينظر البيت في الخصائص لابن جني : 184/3، ولسان العرب : 125/7.

(124) البيت : 202.

قال الجعبري في إعراب البيت :

«وأسقط : حذف، وفتى العلا فاعله، قصر للوزن، والألى : الأولة، أي من الهمزتين، ولا يتزن البيت إلا بالنقل، مفعوله» [125] فإذا غضضنا الطرف عن الخلط بين الإعراب والتفسير اللغوي بالمرادف وبالجمل، والتفتنا فقط إلى الاستعمال اللغوي وجدنا هذا التفسير : الأولى. لم أقف على هذا التفسير لغيره.

وأيضا لو جعل الجعبري كلمة مفعوله بمد : والآولى مباشرة لكان أبين.

مثال رابع : استعمال غير دقيق :

رغم تبحر الجعبري في البحوث اللغوية فإنه يتجاوز أحيانا كثيرة الاستعمال الدقيق الى استعمال غير مناسب، ففي شرحه للفظة : أعذني في قول الشاطبي : **أعذني من التسميع قولا مفعلا** [126].

قال : «أعذني : أعصمني[127]».

ومن المعلوم أن العصمة لا تكون إلا لنبي، فكان على الجعبري أن يفسر بما لا يحتاج إلى تأويل.

مثال خامس : تلميح بعيد الغور مشوش :

قال الجعبري – وهو ينبه على أصل الياء في لفظ : الدنيا – : «وياؤها عن واو ليمتاز عن الاسم، والقصوى منبه [128].

تأمل طريقة إخادله لفظ : القصوى في الموضوع واخباره بأنه منبه، أراد الجعبري أن يختصر في ثمان كلمات قاعدتين تصريفيتين لكلمتي : الدنيا والقصوى، مع التفرقة بين الإسم والوصف في لفظ : الدنيا. فجاء كلامه عن القصوى بالخصوص شبه لغز، أراد أن يقول : القياس في القصوى أن تستعمل بالياء

(125) كنز المعاني، شرح البيت قبله، تحقيق، ص : 419.

(126) عجز البيت : 71.

(127) كنز المعاني، شرح البيت : 71، التحقيق، ص : 137.

(128) كنز المعاني، شرح البيت : 19، التحقيق، ص : 43.

كالدنيا. وانما استعملت بالواو تنبيها على أصلها الذي هو الواو، وقد خالف الجعبري ابن الحاجب ووافق ابن مالك والعكبري وغيرهما (129).

رابعا : كلمة للمقارنة :

قبل أن أختم هذا الموضوع لا بد من إبداء رأي وإيجاز مقارنة، أما الأول فإن الجعبري بالنسبة لي مغر ومحير في نفس الوقت بتفكيره وأسلوبه وتعبيره، وكثيرا ما وقفت أتأمل – وطال بي التفكير والتأمل – في تحديد الوصف الذي يمكن أن يوصف به الجعبري في فكره وأسلوبه. فأخرج من التأمل الطويل حائرا وأعيد الكرة ثم أعيد ...

وكيف أستطيع التحديد وقد ارتبك – كما سبق – فحول النحو والبلاغة في الموضوع (130). وأما المقارنة فأقول عنها : الجعبري مع نفسه – من جهة – منظم لأعماله مخطط لكتاباته، ومن جهة ثانية هو بعيد المرامي شديد الحنين إلى جذور اللغة.

ففي شروحه للمتون تجده متقارب الخطى أو متشابهها، وربما استغنى عن خطوة في شرح ببسطها في شرح آخر، وهكذا تجده في شرحه للشاطبية مثلا بعد فراغه من المقدمة الطويلة التي بسط

---

(129) قال أبو عمرو عثمان بن عمر بن الحاجب المتوفى سنة 646 هـ "وتقلب الواو ياء في فعلى اسما كالدنيا والعليا" : الشافية باب الإعلال. فقد جعل الدنيا اسما كما ترى، وقال أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري المتوفي سنة 616 هـ : «وقياس الاستعمال أن تكون – يعني القصوى بالواو – القصيا لأنه صفة كالدنيا، وفعلى إذا كانت صفة قلبت واوها ياء فرقا بين الاسم والصفة» فجاء كلام الجعبري كأنه اختصار له : إملاء مامَنَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات : 7/2. وقال أبو عبد الله جمال الدين محمد ابن عبد الله بن مالك الحياني ثم الدمشقي المتوفي سنة 672 هـ :

بالعكس جاء لام فعلى وصفا * وكون قصوى نادرا لا يخفى

قال شارحه المكودي : "يعني أن لام فعلى وصفا بضم الفاء إذا كانت واوا أبدلت ياء نحو دنيا وعليا " : الفتح الودودي على شرح المكودي : 191/2.

(130) مثلا المنجرة في فتح الباري : 1 / لوحة : 89. وابن عبد السلام الفاسي في شذا البخور العنبري، لوحة : 78، وفي : المحاذي / لوحة : 174 – 175 في موضوع العام المخصوص أو الذي أريد به الخصوص وقس على ذلك.

فيها الخطوات العريضة لمنهجه، وعند شروعه في المقصود، يبدأ بتعريف الشعر لغة واصطلاحا، ثم التعريف بالقصيدة ووزنها ونوع بحرها، وقافيتها مع التعرض للخلاف في ذلك، ثم التعريف بجملة من أنواع الزحاف والعلل التي تلحق تفاعيل هذا البحر، ثم يطيل الحديث عن صاحب القصيدة والثناء عليه.

وفي الأبحاث الجميلة في شرح العقيلة نفس الخطوات : بحث عروضي ثم بحث لغوي، واستبدال للحديث عن المؤلف – لأنه سبق – بإشارات وتنويهات بموضوع المؤلف.

وفي مؤلفاته المصنفة غير شروح المتون، ننظر له في "رسوخ الأحبار في منسوخ الأخبار" الذي هو كتاب حديث وفقه. فنجده فيه – من جهة – كما نجده في كنز المعاني لغة أوسلوبا وتخطيطا وتأثرا بمعارفه العامة أيضا.

ومن جهة ثانية نجده في كنز المعاني طويل النفس كثير الاستطراد بينما هو في : رسوخ الأحبار، شديد الإيجاز يضطر القارئ الى التأمل كثيرا [131].

ولو أردت أن تقارن أسلوب الجعبري بأسلوب غيره ومنهجه بمنهج غيره لوجدت اختلافا كبيرا. وليكن هذا الغير أبا شامة مثلا فقد شرحا الشاطبية كل بمنهجه وأسلوبه، وقد عرفت تقديم الجعبري، أما تقديم أبي شامة فيختلف تماما عن تقديمه. إذ تقديمه عبارة عن نبذة تاريخية عن علم القراآت وأهميته وفضله ثم دخول في المقصود، لاحديث عن الشعر، ولا عن العروض، وإنما هو شرح مباشر، منهج مخالف إذا. ففضائل هذا العلم وطلابه أهميته تعرض لها الجعبري من خلال شرحه لمقدمة الشاطبي كلها.

ولو أردت أيضا أن تقارن بين أسلوبيهما لوجدت فروقا كثيرة. لا نطيل باستعراضها، وانما نكتفي بضرب مثال منها.

(131) ينظر رسوخ الأحبار مثلا ص : 136 – 137، فروع : مالا يشترط في النسخ، وص : 146 في موضوع "الباقي من العام" أسلوب لا يختلف في شيء عن أسلوب ابن السبكي في جمع الجوامع، وفي ص : 179 في : معنى العبادات والفرض من الإنسان، وفي ص : 382، تعريف الأضحية، وفي ص : 467، تعريف الجراحة والجراح تعريفا لم يجد له المحقق أصلا في اللغة.

شرح كل من الجعبري وأبي شامة قول الشاطبي :

جعلت أبا جاد على كل قارئ ❁ دليلا على المنظوم أول أولا

فعبرا عن القاعدة في قضية اجتماع الراويين عن شيخ على قراءة كيف يعبر عنها ؟

قال أبو شامة عن مجموعة من القواعد : «ومنها أنه مهما اجتمع الراويان على قراءة فالرمز لإمامهما دونهما في غالب الأمر لأنه الأخص، ولا يحتاج إلا الى كلمة واحدة [132]...»

وقال الجعبري : «ويسلك الأخص غالبا فإذا اتفق الراويان ذكر الإمام، فنحو طال بالخلف يذيلا» [133] للخلاف، ونحو «ضوء سنا تلا» [134] و«لست فيه مجهلا [135]» للوزن.

ملاحظة أخيرة وهامة :

رغم كل ما ذكرته عن أسلوب الجعبري فلا يظنن القارئ أنني حكمت على أسلوبه في نفسه، وإنما حكمت على نفسي من خلاله. إنني أحيانا كثيرة أتذوق أسلوب الجعبري وأتأمل في إدراكي لما أدركت من معانيه فأظنني نزلت بالسهل الممتنع، وأحيانا يغلق علي - كما قال الجعبري عن نفسه - فأخال نفسي في أدغال ذات مسالك وعرة أظنها غير مفضية الى طريق معبد، فأرجع الى غيره من الكتب التي سبقته أو لحقته لأفتح الباب الذي أقفل في وجهي ثم أعود إليه، ومع ذلك فلم أسأم منه يوما رغم ما حل بي من الغم الذي يعلمه الله. عندما أضيع مني أكثر من ربع كنز المعاني محققا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

---

(132) ابراز المعاني، ص : 35.

(133) البيت : 280، من باب : حروف قربت مخارجها.

(134) البيت : 312، من باب : الفتح والامالة.

(135) كنز المعاني، تحقيق، ص : 94. وعجز البيت هو من البيت : 609، سورة النساء.